

## سلطان علي شاه الجنابذي مجدد الطريقة النعمة اللهية في ايران

شهرام پاروکی

يُمَثِّلُ التَّصَوُّفُ الحَقِيقَةَ المعنوية للإسلام، و إن لم يكن مصطلح "التصوف" معروفاً في مَطَلَعِ الإسلام. أثبت التصوف ماهيتاً أنه بمثابة الروح للإسلام التي تَمُنُّهُ الحياة كما أنَّ الروح تَمُنُّهُ البدن حياته. و بحسب اصطلاحات الصوفية، فإنَّ للإسلام جَنَبَتَيْنِ: الشريعة، و هي البُعد الظاهري أو البدن الخارجي، و الطريقة، و هي البُعد الباطني أو الروحي، و قد اِنْدَمَجَ هذان البُعدان بِشكْلِ متلازم لا يقبل الانفصال في شخص النبي (ص). و لكن شيئاً فشيئاً و على مَرِّ التاريخ الإسلامي ظَهَرَتْ طائفة من الناس أوَلَتْ أهميةً للشريعة فقط بل و حَدَّتْ الإسلامَ داخلَ هذا الإطار. و قد أخذَ العلماءُ و الفقهاءُ هذا الموقف في كثير من الأحيان. و في مُقابِلِ هذه الطائفة، ظَهَرَتْ طائفةٌ أُخرى أَكَّدَتْ على البُعد المعنوي و الروحي أو ما يُعْرَفُ بالطريقة، و هُمَ مَنْ عُرِفُوا لاحقاً بالصوفية.

إنَّ انتشارَ الإسلام لم يَتَحَقَّقْ مِنْ خِلالِ سيوف الحُكَّام، و إنما تَمَّ ذلك عَبْرَ الكلمة المخلصة للصوفية النابغة من القلب. إنَّ السيوفَ القاطعةَ لِلسُلطانِ محمود الغزنوي أو نادر شاه أفشار لم تكن السبب في جعل الإسلام مؤثراً بين الهنود، بل كان إسلامُهُم راجعاً إلى الجاذبية المعنوية و النَّفْسِ الواهبِ لِلحياةِ الَّذِينَ نُحَلِّي بِهَما مشايخ الصوفية كخُلَفاءِ شاه نعمة الله ولي أو مير سيد عَلِيِّ الهمداني او شيخ عبدالقادر الجيلاني. و كُلُّما كان يَصُيَّبُ المسلمِينَ ضعفاً و يَنحرفون عن حقيقة الإسلام، كان الصوفيةُ العِظامُ يَتَصَدَّدُونَ لتجديد الإسلام و إحيائه. و كان هذا الأمر يَتَمُّ أحياناً بِشكْلِ صريح كما حَدَّثَ مع الغزالي الذي أَتَّخَذَتْ مُحاولَتُهُ الإحيائية شكلاً صريحاً مِنْ خِلالِ كتابه الشهير "إحياء علوم الدين"، و أحياناً أُخري بِشكْلِ ضمني، كما حَدَّثَ مع شاه نعمة الله ولي.

و لم يَسَلَمِ التصوفُ نَفْسُهُ مِنَ الانحراف الذي أصابه من حين لآخر، و يُمَثِّلُ استخدامَ تعبيرات من قبيل "المتشبه الحق بالصوفيه" و "المتشبه المبطل بالصوفيه" في كتب كـ "نفحات الأنس" للجامي شاهداً على هذه الظاهرة. و كان مشايخُ الصوفية انقُصهم مِنْ أُبْرَزِ الَّذِينَ انبَرَوْا لِانتقادِ مثلِ هذه الانحرافات، فكانوا المجدِّدين و المحييين الحقيقيين للتصوف.

لقد عانى التصوف علي يد طائفتين: الطائفة الأولى هُم الصوفية الزائفون يَمُنُّونَ أَنَّ الأبعاد الباطنية

للإسلام كافية لهم و أنَّ بإمكانهم ترك الأوامر الظاهرية عن عمدٍ و وعي؛ و الطائفةُ الثانيةُ هم الفقهاء الذين حَصَرُوا فَهْمَهُم للإسلام في إطار أحكامه الظاهرية و تجاهلوا حقيقتَهُ المعنوية. و تَمْتَلِكُ كِلَا الطائفتين فَهْمًا ناقصاً للإسلام، إحداهما فيما يَحُصُّ الشريعة و الأخرى فيما يَتَعَلَّقُ بالطريقة. و لهذا كان مشايخ الصوفية في معرض المواجهة مع هاتين الطائفتين. و قد كانت عَمَلِيَّةُ التجديد و الإصلاح للتصوف في غالب الأحيان بحاجة إلى نوع من إعادة رَصْدِ الحساب (الموازنة) لكل من الشريعة و الطريقة من أجل الحِفاظ على بُنْيَانِهِ الأصيل. و هذا الجُهد لِرِصْدِ الحساب هو ما حَثَّ مشايخ الصوفية العظام للأخذ بعين الاعتبار الظروف الزمانية التي أحاطت بهم لجعل الأحكام الدينية مُلائمةً لهم. و هذا ما مَكَّنَهُمْ مِنْ عَرْضِ الإسلام في ثوبٍ أكثر تكاملاً و حفظه من الانحراف.

### شاه نعمة الله ولي

يُعَدُّ شاه نعمة الله ولي (المولود سنة ٧٣١ - والمتوفي سنة اربع و ثلاثين بعد الثمان مائه ٨٣٤ هـ) أحدَ العظام الذين تَصَدَّقُوا لإصلاح التصوف و تجديده. كان عصره من أكثر العصور الكارثية التي مرَّت بالمسلمين، خصوصاً في إيران التي عانت خلال هجمات المغول و من بعدهم التيموريين. ففي الأمور الدينية، كان هناك مُدَعُو التصوف من ناحية، مِمَّنْ لم يُطَبَّقِ التعاليم الصوفية، و من ناحية أُخري كان هناك الواعظون المراءون مِمَّنْ اِتَّخَذُوا مِنَ الدين وسيلةً لِأغراض شخصية. وقد تَوَجَّهَ حافظ الشاعر الإيراني الشهير باللوم إلى هذين الصنفين في أشعاره، ما مَثَّلَ شاهداً على الوضع في إيران آنذاك. فحين يَضِلُّ الْمُتَصَدِّقُونَ للوعظ الديني، تَتَعَرَّضُ أفكار عامة الناس و أخلاقهم للانحطاط.

في تلك الفترة، حاول شاه نعمة الله ولي، بصفته شيخ الطريقة المعروفة و خليفة الشيخ عبد الله يافعي، تحسِينِ الأوضاع الدينية في بُعْدِيَّهَا الداخلي و الخارجي (الظاهري و الباطني)، فقام بِفِضْحِ الجرائم و التعاليم الزائفة لمُدَّعي التصوف مِمَّنْ عاصروه، كما اِنْتَقَدَ علماء السنة و الشيعة على حدِّ سواء. فَنَاشَدَ أَهْلَ السنة المُتَعَصِّبِينَ لِلْعُودَةِ إِلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ (ص) المُتَعَلِّقَةَ بِحُبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ، بينما ذَكَرَ الشَّيخُ أَنَّ دُعَاةَ التَّشْيِيعِ هِيَ تِلْكَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِحَقِيقَةِ الْوَلَايَةِ الْغَائِبَةِ أَكْثَرَ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَ الْمَسَائِلِ السِّيَاسِيَّةِ. وَ رَفَضَ بِالتَّالِي أَنْ يَكُونَ رَافِضِيَا (مَنْ يَرْفُضُ صَحَابَةَ النَّبِيِّ) أَوْ خَارِجِيَا (مَنْ يَرْفُضُ وَايَةَ عَلِيِّ).

و نظراً لِلصُّعُوبَاتِ التي واجهت الصوفية في إيران بعد وفاة شاه نعمة الله ولي، انتقل أتباع الطريقة إلى الهند بدعوة من السلطان أحمد شاه بهمني. و في تلك الحِقْبَةِ، التي اشتدَّت فيها الصُّعُوبَاتِ وَالتِّي اِفْتَدَّتْ مِنْذِ أواسط عهد الصفويين إلى نهاية سُلَالَةِ الرَّئِيسِينَ الْحَاكِمَةِ، أدَّت الاضطرابات السياسية في إيران من ناحية، و

رفض الحُكَّام للتصوف و هيمنهُ العلماء الذين حَظُّوا بِعِلاقاتٍ جيِّدةٍ بِالحكومة مِن ناحيةٍ أُخرى، أَدَّى كُلُّ ذلكَ بِمُعْظَمِ الطُّرُقِ الصوفيةِ إمَّا إلى مِغادِرةِ إيرانِ أو العَمَلِ بِشِكلٍ سِرِّي. و على الرَغمِ مِن أن حُكومة الصُفويِّين نَفَسَها إِبْتِنَتْ علي أساسِ صوفي، فإنَّ الموقِفَ الَّذي إِتَّخَذَتْهُ هذه السُلالةُ الحاكمةُ قد اِتَّسَمَ بِالْحَصْرِيَّةِ، الأَمْرُ الَّذي أَدَّى بِهَمِّ إلى عَدَمِ السِّمَاحِ بِالمِمارِسةِ الحُرَّةِ للطُّرُقِ الصوفيةِ الأُخرى. وإِسْتَمَرَّ هذا الوَضْعُ إلى سَنَةِ ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦م، حينَ أُرسلَ رضا علي شاهِ دِكني، الَّذي كانَ قُطبَ الطُّريقَةِ الصوفيةِ آنَذاك، أَحَدَ مِشايخِ المُفَوِّضينَ، و اسمُه سَيد مِير عبد الحميد معصوم علي شاه، إلى إيران. و قد أُحيلتْ مَهْمَةُ إحياءِ التِصوفِ في إيرانِ إليه و إلى أَحَدِ تالِبعِيهِ الرئِيسِيينَ نور علي شاهِ الاصفهاني. و قد تَصَرَّفَ الاِثْنانِ بِطُريقَةٍ أَثارتِ اِنتِباهَ الناسِ الَّذينَ كانوا قد نَسُوا التِصوفَ لِفِترَةٍ طويِلة. و أَصَبَحَ العَديدُ مِنَ الناسِ أَتباعاً لَهُم، و مِن ضَمِنِهِم العَديدُ مِنَ العِلماءِ البارِزينَ أمثالَ السَيدِ بَحرِ العِلمِ (١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م) و عبد الصمد المهداني (الَّذي قُتِلَ علي يَدِ الوُهايبيِّينَ عامَ ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م)، و هِكذا راجَ التِصوفُ مَرَّةً أُخرى في إيران. و مِن ناحيةٍ ثانية، إِسْتَمَرَّتْ مِقاوِمةُ بعضِ العُلماءِ للتِصوفِ حَتَّى أَنهَم بَحَّحُوا في إِقناعِ بعضِ المِلوِكِ القاجاريِّينَ بِقُتلِ مِشايخِ الصوفيةِ بِدَريِعةٍ أَنَّهُم يَهْدِفونَ لِلاِسْتِيلاءِ علي الحُكْم. و نَدَكُرُّ هِنا اسْتِشهادَ مِشتاقِ علي شاهِ في كرمانِ و اسْتِشهادَ تالِبعِهِ مظفر علي شاهِ في كرمانشاهِ بِأَمْرِ مِنَ الفقيهِ المِتنفِذِ مُحَمَّدِ علي اللكرمانشاهي الَّذي إِشْتَهَرَ بِوصفِ "قاتِلِ الصوفية".

بعدَ يُعَدُّ نور عليشاهِ أَحَدَ المِجْدِّدينَ للتِصوفِ في إيرانِ و أَصَبَحَتِ الطُّريقَةُ النعمةُ اللِهيةُ في زِمانِهِ الأَكثَرَ رواجاً بينَ عامَةِ الناسِ. و كَلِّمًا كانَ يَروِجُ التِصوفَ في وِقتِهِ ما، يَكْثُرُ مِنَ يَدَّعيِ الاِنتِسابِ اليه. و حِلالَ الفِترَةِ التي كانَ فيها رِحمَةُ علي شاهِ (١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م) قُطِبَ الطُّريقَةِ، راجَ التِصوفُ بِشِكلٍ خاصٍ و يَرِجَعُ ذلكَ نِوعاً ما إلى دِخولِ المِلكِ مُحَمَّدِ شاهِ في الطُّريقَةِ.

كانَ نور علي شاهِ مِفسِراً للقرآنِ و فيلسوفاً و شاعِراً كَبِيراً، و كانَ مَريدوهُ مِنَ سائِرِ طَبقاتِ الناسِ ابتداءً مِنَ العِلماءِ إلى أَصحابِ الفِنونِ و الحِرف. أَحَدُ الأَصحابِ الفِنونِ الَّذي صارَ مِنَ أَتباعِهِ هُوَ المِوسِيقِي الشَهِيرِ مِيرزا مُحَمَّدِ تَربِتي الخِراساني الَّذي اتَّخَذَ لِقَباً خاصاً بِالطُّريقَةِ، و صارَ يُلقَبُ بِمِشتاقِ علي شاه. كانَ يَجيِدُ العِزفَ علي آلَةِ مِوسِيقِيَّةِ ذاتِ أوتارِ ثَلاثَةِ، و كانَ يَمْتَلِكُ صِوتاً يُقالُ في حَقِّهِ أَنه صِوتُ داوودي. كانَ يَقيمُ بِكرمانِ حِثِ اِجْذابَ إلى هِذا الصوفيِ المِجْدُوبِ العَديدُ مِنَ الناسِ. و مِن هِناكَ أَهَمَّ بِعَدَمِ التِدينِ و بِتِهمَةِ تَلحينِ القرآنِ بالأوتارِ الثَلاثَةِ، الأَمْرُ الَّذي أَثارَ إِمامَ المِسجِدِ، و أَدَّى إلى قِيامِ الناسِ بِرِجمِهِ إلى أن قُضِيَ شَهِيداً عامَ ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م و هِيَ في الخامِسةِ و الثَلاثينِ في عِمرِهِ. و مِزارُهُ مِوجودٌ في كرمانِ يَطوِفُ حِولَهُ أَهلُ الطُّريقَةِ. و قد اِرتَبَطَ اسمُ مِشتاقِ علي شاهِ بِالنِغمةِ ذاتِ الأوتارِ الثَلاثَةِ في المِوسِيقا الوِتريةِ في إيران. و هِذهِ النِغمةُ مِوردِ اِهتمامٍ شَديدٍ في بَيانِ أَحوالِ الصوفيةِ. و مِن اِبتِكاراتِ مِشتاقِ علي شاهِ في المِوسِيقا اِضافةً وَترِ رابِعٍ إلى الأوتارِ الثَلاثِ. و يَعْرِفُ هِذا الوِترَ عِندَ المِوسِيقِيينَ بِوِترِ "مِشتاق".

و بعدَ وِفاةِ رِحمَةِ علي شاهِ اِنقَسَمَ النِعمةُ اللِهِيونَ إلى ثَلاثِ مِجموعاتٍ: (١) أَتباعُ الحاجِ مُحَمَّدِ كاظمِ

الاصفهانى سعادى على شاه؛ (٢) أتباع الحاج محمد المعروف بمنور على شاه عمّ رحمة على شاه؛ (٣) أتباع الميرزا حسن صفى المعروف بصفى على شاه. و قد ظهر هذا التقسيم أولاً بسبب الاختلافات حول وصية رحمة على شاه الصريحة بأنَّ يخلّفه سعادة على شاه. و بعد فترةٍ ما أبرز مُعارضو سعادة على شاه وصيةً أخرى نسبوها لرحمة على شاه تنصُّ على أنَّ منور على شاه هو من يجب أن يخلّفه رغم أنَّ منور على شاه نفسه أقرَّ بأنه لم يتسلّم الوصية شخصياً. في الوقت ذاته جدّد صفى على شاه في البداية عهدَه مع سعادة على شاه و أنكر صحّة الوصية الخاصة بمنور على شاه. و لكنه، و بعد أن رفض سعادة على شاه أن يُصنّبهُ شيخاً، قطع عهدَه معه و صار من أتباع منور على شاه. و بعد مدة، رفض أيضاً زعامة منور على شاه و أعلن نفسه قطباً. و بهذا الشكل إنقسمت الطريقة النعمة اللهيّة إلى ثلاث سلاسل: الأولى سلسلة سلطان على شاه الجنازدي، وهي السلسلة الرئيسيّة و الأكثر اتّساعاً؛ الثانية سلسلة ذو الرياستين؛ الثالثة سلسلة صفى على شاه.

و تُنسب سلسلة سلطان على شاه إلى خليفة سعادة على شاه الحاج ملا سلطان محمد سلطان على شاه، المولود في جنابذ بخراسان في سنة ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م.

كان سلطان على شاه من أبرز العلماء و الصوفيّة و أشهرهم في عصره حتّى أن اسمه كان يُذكر في مُعظم الكتب آنذاك. فقد والدّه و هو في الثالثة من عمره، و على الرغم من طرّوة سنّه فإنّ نبوغه كان مشهوداً من الجميع، فعرف بين الناس و قبائل بيدخت و جنابذ بدكائه و فطنته و وقاره و رباطة جأشيه. و بعد أن أنهى دراساته الأولى في بيدخت توقّف مؤقتاً عن إكمال دراسته نظراً لنقص الامكانيات الكافية. لكنه و بفضل حماسته و مثابرتّه واصل دراسته في سن السابعة عشر و خطاً خطوات واسعة إلى درجة أنّه لم يعدد بوسع أساتذته المحلّيين أن يرووا ظمأه العلمي. و هكذا توجّه إلى مدينة مشهد المقدسة لاستكمال دراسته حيث قضى بعض الوقت هناك و أفاد من الحضور عند علمائها. و من هناك توجّه إلى النجف بالعراق حيث صار متّصّلاً في الفقه و الأصول و التفسير، و لازم دروس أشهر الفقهاء أمثال الشيخ مرتضى الأنصاري، و حصل على إجازة الاجتهاد. و في طريق عودته من النجف توجّه تلقاء سبزار، و تحت إشراف الفيلسوف الشهير الحاج ملاهادي السبزواري درّس الفلسفة المشائية و الفلسفة الإشراقية و فلسفة ملا صدرا. و فاق جميع أقرانه من تلاميذ السبزواري، و كتّب حاشية على كتاب ملا صدرا الشّهير، "الأسفار". غير أنّ تسلّطه على هذه العلوم لم يرو ظمأه للمعرفة التي بدأ يسعى لتحصيلها من قلوب الصوفية. و في تلك الفترة توجّه قطب الطريقة النعمة اللهيّة سعادة على شاه برفقة بعض أتباعه إلى سبزار، ألغى الملا هادي، الذي كان مُخلصاً للقطب، دروسه و أفتّرح على تلاميذه أن يرافقوه لزيارة سعادة على شاه. و في تلك الجلسة الأولى إنجذب الحاج ملا سلطان محمد إلى شخصية سعادة على شاه على الرغم من أنّ

الأخير لم يكن من العلماء، لكنّه لم يخضع له آنذاك، ثم توجّه بعد فترة إلى جنابذ. و في نهاية المطاف، في العام ١٢٧٩ هـ، سار إلى محل إقامة سعادة علي شاه في اصفهان، متوجهاً إليه و بداخله نازاً متقدّدة. و سرعاناً ما دخل في طريق السلوك المعنوي إلى الله. و كما تبع مولوي شمس التبريزي الذي كان عامياً، فقد صار هو أيضاً تابعا لسعادة علي شاه الذي كان بدوره عامياً. قضى بعض الوقت في المراتب المتعددة للسلوك إلى الله، ثم أجازته الأستاذ لإرشاد المریدین الحديثي العهد بالتصوف و منح لقب سلطان علي شاه. في عام ١٢٩٣ هـ متوفي سعادت علي شاه و خلفه سلطان علي شاه كقطب للطريقة النعمة الالهية. عُرف سلطان علي شاه في العالم الإسلامي من خلال معارفه و توجيهاته المعنوية. و قد أثار ذلك غيرة أعدائه الذين عارضوا نهجه. و نتيجة لذلك فقد نال الشهادة خنقاً في العام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م. و قبره في بيدخت، جنابذ.

ألف العديد من الرسائل و الكتب و التي يُعدُّ أهمُّها تفسيره الشيعي الصوفي الشهير للقرآن "بيان السعادة" الذي يقع في أربع مجلّدات، و هو التفسير الوحيد الصوفي الكامل في المكتبة الشيعية و كذلك "سعادت نامه [رسالت السعادة]" و "مجمع السعادة"، و التي تُشير جميع عناوينها إلى أستاذه سعادة علي شاه. و من تأليفاته أيضاً "ولاية نامه [رسالة الولاية]"، "بشارة المؤمنين"، "تنبيه النائمين"، "إيضاح"، و "رسالة التوضيح".

و كما كان الحال في زمن شاه نعمة الله، كان زمن سلطان علي شاه حرجاً؛ حيث كانت الفترة التي وقّع فيها الصدام بين ايران و الثقافة الغربية الحديثة، حين واجه الناس أفكاراً و مفاهيم جديدة تضمّنت أفكاراً علمية و اجتماعية. و بطبيعة الحال رفض بعض علماء ما بدأً جديداً و غريباً، بينما أدعّن آخرون لذلك بشكلٍ سطحي. و في تلك الأثناء أصاب الركود الفقه الشيعي المبتني على الاجتهاد و استنباط الأحكام طبقاً لمُتطلّبات الزمان. غير مُلتفتين للموضع الذي أصبح عليه العالم الجديد، إنتابت مُعظم الفقهاء الحمّية و الغيرة علي أحكام الدين الظاهرية، آخذين بعين الاعتبار أيضاً المظاهر الخارجية للثقافة الغربية و التي حكّموا عليها بأنّها تُناقض الإسلام.

و كان التصوف بدوره يُعاني أزمة، فمُعارضة الفقهاء للتصوف، والتي بدأت منذ نهاية حكم الصفويين، استمرّت وبُقوة. من ناحية أُخري، كانت مُمارسات الصوفية المرّيّفين تقفُ علي النقيض و بشكل واضح من العصريين كما من الشريعة الإسلامية علي حدّ سواء. آخذاً جميع ذلك في حساباته، واجهت سلطان علي شاه ثلاث طوائف عارضت جميعها التصوف الحقيقي: (١) بعض الفقهاء الظاهريين؛ (٢) الصوفية الزائفون؛ (٣) بعض العصريين. و قد أدخل هذه الطوائف الثلاث في حساباته أثناء مُحاولته لتجديد التصوف.

و بِمَعَزَلٍ عن موقعه القيادي، كان سلطان علي شاه فيلسوفا و فقيها، و قد اصْطَبَعَتْ نظرياته الفلسفية و آراؤه الفقهية بِتَصَوُّفِهِ. كما أَنَّهُ كان في ذلك الوقت تلميذا للملاهادي السبزواري الذي كان من أشهر المدافعين عن منهج فلسفي يَسْتَنِدُ علي التصوف و هو المِنْهَج الذي اسْتِفَادَهُ من المِلاصِدرِ، و قد تَبَيَّ هو نفسه مِنْهَا فلسفيا ذَهَبَ في الأَغلِبِ في ذاتِ الأَنجَاحِ. و كان مجتهدا في الفقه و قد مَنَحَهُ إِجازة الاجتهاد، الفقيه الشيعي الكبير لوقته آية الله الحاج الميرزا الشيرازي. و مع ذلك لم تَصُدُرْ عنه أَيُّ فَتوَيٍّ كَمُجْتَهِدٍ، لأنَّه كان يَري ضَرورةَ الحِفاظِ علي الفاصل بين مجالي الطريقة و الشريعة. و مع ذلك يُمكن العُثور علي بعض آرائه الفقهية في تفسيره "بيان السعادة" و التي تُكشِفُ عن تمام وَعْيِهِ بالحاجة إلى الاطلاع على الأوضاع المعاصرة و إدخالها في الحُسابِ لاسْتِنْباطِ أحكامِ الشريعة الإسلامية، و بناءً علي ذلك فقد ذهب إلى إباحة الموسيقى و الشطرنج وَفَقَ شرائطِ خاصته، و إلى الطهارة الذاتية لأهل الكتاب وَنِجَاسَتِهِم العَرَضِيَّة، و إلى منع الاسترقاق لِفقدانِ المصاديقه الشرعية في زمانه و حُرمةِ تدخين الأفيون.

### تحریم الأفيون

كانَ تدخينُ الأفيونِ أَحَدَ العاداتِ السيئةِ التي راجَتْ في الشرقِ الأقصى و الهند و ايران في تلك الفترة، و ذلك كَنتيجةً لِلسياساتِ الاستعمارية لِبعضِ الدولِ الأوروبية. و كانت ممارسة هذه العادة تُنتشر بين بعض الصوفية لِسنواتٍ عديدةٍ حتَّى وصل الأمر إلى أن عُدَّ ذلك بمثابة إحدِي عاداتِ الصوفية. و كانوا يقولون أَنَّهُ لكي يُصْبِحَ المرأُ درويشا فعليه أن يدخن الأفيون أو الحشيش. و لكي يبرروا ذلك، ادعوا أَنَّهُ يثير الوجد و وصول الصوفي إلى غايته ؛ أي الفناء. و تخيلوا أن الفناء الذي يثيره تدخين الأفيون هو ذاته الفناء الصوفي. و بحسب مولانا:

لكي يغيبوا لفترة ما من الوعي و اليقظة،  
فقد غطوا أنفسهم بخزي الخمر و الحشيش

إن الفناء الصوفي يأتي من الله و ليس جراء تغيير في الكيمياء الفيزيائية. و مرة أخرى يقول مولانا:

ينبغي أن يكون الفناء من الله  
حتى يُشاهد جمال الله فيه

إن ضرر تدخين الأفيون من وحي التجربة الصوفية عند المتصوفة يكمن في الخلط الذي يحدث للشخص بين الهلوسة التي يثيرها استعمال المخدر و الكشف أو الفتح الإلهي الذي يتقربه كل صوفي. و من وجهة نظر اجتماعية، فقد أدت هذه العادة أولاً إلى السكون و عدم الفاعلية و من ثم إلى الكسل و البطالة، كما أن الأضرار التي تسببها للصحة العامة واضحة للجميع. و لهذه الأسباب فقد حرم سلطان علي شاه بحزم تعاطي الأفيون بين أتباعه في وقت لم يكن قد ظهر ضرره الاجتماعي اللاحق بعد، و قد وصل هذا التحريم إلى حد لعن أولئك الذين كانوا يدخنونه. و لم يكن ليقبل أحدا ممن يدخنون الأفيون كمريد صوفي. في تفسيره "بيان السعادة" حول آية {يسألونك عن الخمر و الميسر قل فيهما إثم كبير...} (البقرة: ٢١٩)، أعلن تحريم الأفيون على أساس أنه انتهاك للحقوق الخاصة بقوى الانسان. و قد بدا هذا الإعلان في ذلك الوقت أمراً ثورياً من حيث أن أحداً من العلماء لم يتطرق أبداً لبحث هذه المسألة. كما مثّل هذا التحريم عقبة أمام أنشطة الاستعماريين الذين كانوا يسعون لإضعاف الناس و جعلهم عالة عليهم.

و بعد سلطان علي شاه، كتب حفيده و وصيه ملا علي نور علي شاه الجنابادي كتاباً تحت عنوان "ذو الفقار" حول تحريم تدخين الأفيون. و ذكر في ذلك الكتاب أنه طالما أن هذا الإثم، الذي منشوؤه وساوس الشيطان، قد صار رائجاً في معظم مدن إيران و أن أحداً من العلماء لم يعر اهتماماً إليه، فإنه من اللازم على أولئك الذين اطلعوا على هذه المشكلة أن يسعوا إلى التصدي لها. و لغة هذا الكتاب على درجة من السهولة والوضوح بحيث يتمكن عامة الناس من إدراك شر هذا الأمر.

و منذ زمن سلطان علي شاه أصبح تحريم تدخين الأفيون أحد الخصائص المميزة لطريقة سلطان علي شاه الجنابادي النعمة اللهية في التصوف.

## ترك البطالة

لا ينفصل الظاهر عن الباطن في الإسلام. و يعد أي عمل يؤدي بنية التقرب إلى الله عملاً عبادياً. من هنا فإن الاشتغال بالعبادة لا يعد عذراً لترك الأعمال الدنيوية. قال النبي (ص): "لا رهبانية في الإسلام". و في التصوف، و في ظروف خاصة، كما في أثناء ترويض النفس الشهوانية، قد يكون تكليف السالك

الانعزال. قبل تكليفه من قبل الله تعالى، اعتزل النبي (ص) مدة في غار حراء. و بسبب الجذبة الإلهية قد يعرض للصوفي أحيانا أن يعتزل العالم. و في كل هذه الحالات تعد العزلة استثناءً، لا قاعدة. إن الاشتغال بالفنون و الحرف في المجتمعات الإسلامية التقليدية، كالبناء و الخط و غير ذلك، ينسجم و يتكامل مع السفر إلى الله. من هنا فإن على من أراد أن يصبح من أهل الفتوة و يدخل في طريق التصوف أن يشتغل بفن أو حرفة. إن بعض الصوفية، مع ذلك، قد استغل، بشكل متعمد أو غير متعمد، فكرة الخلوة و العزلة كمبرر للبطالة و الاستجداء. و كانت حججهم التوكل على الله و الرضا بما قسمه كأساس للسلوك الصوفي. و لذلك تحولت بعض الخانقات (التكايا) إلى ملتقى للكسالى.

في زمن شاه نعمة الله ولي كانت هذه العادة الذميمة شائعة بين الصوفية. و رغم أنه مارس العزلة عدة مرات، فإنه أمر مريديه بالاشتغال بالأعمال و عدم الاستزاق من خلال التصوف. و قد اشتغل هو نفسه بالزراعة و مدح هذه المهنة، و كان يقول إن العمل نوع من الخيمياء ؛ و هي الكيمياء القديمة (يقصد أن العمل وسيلة لرقى الانسان و وصوله إلى مرحلة من التصفية و التهذيب و تحويله من شئ مبتذل إلى شئ نفيس).

كانت عادة الاستجداء و التسول رائجة بين العديد من الصوفية في زمن سلطان علي شاه الذي حرم على أتباعه البطالة و البقاء بلا عمل. و قد ساق أدلة على هذا التحريم مبتنية على البرهان العقلي والسيره العرفية العقلانية والقواعد الشرعية. يقول سلطان علي شاه: "على كل انسان أن يعمل لتحصيل المعاش و لتحسين العالم. ينبغي على المرء أن يشتغل بأي عمل يحبه، و لا يخالف هذا الأمر الشريعة الإسلامية، كالزراعة و التجارة و الصناعة." و قال في مناسبة أخرى: "إن البطالة تقف على طرف النقيض من الحضارة أيضا."

كانت هذا الوصية هي ما يحتاجه العالم الحديث آنذاك، خصوصا مع ظهور المجتمع المدني الذي حتم إنشاء العلاقات الاجتماعية المتقاربة و اشتغال كل عضو من أعضاء المجتمع بعمل ما. و في نفس الوقت، و بصفته مرشدا صوفيا، فقد حذر أتباعه من التباهي و الاغترار بأموال الدنيا و جني الثروة أو اشتهاه ما في يد الغير. و كان يقول: "على الانسان أن يعد نفسه فقيرا وإن كانت له ثروة طائلة... إن أحدا لا يأخذ معه سوى كفن من هذا الدنيا. و حين يتوجه الانسان إلى هذه الحقيقة فإنه سوف يدرك أنه فقير في هذه الدنيا و أنه محتاج إلى الله... إن تحسين العالم لا يتنافى بأي حال من الأحوال مع الدروشة." و من تعليماته أن أي



عمل كان، متضمنا الصلاة و الصوم، بل و أيضا التجارة و الزراعة، إذا كان بنية أداء التكليف الإلهي، يعد عملا عباديا. و لا يتنافى كسب الأموال مع التوكل على الله. و كان يقول إن على الفقير أن يعمل و لكنه ينبغي أن يرى ثمار عمله من الله.

كان سلطان علي شاه يعمل بالزراعة شأنه في ذلك شأن شاه نعمة الله ولي، و على أثر ذلك صارت يدها خشنتان. في أحد الأيام جاء شخص إلى بيته ليسأله عن علم الكيمياء، و لم يكن سلطان علي شاه داخل البيت آنذاك، بل كان في حديقة الدار. فذهب الرجل إلى الحديقة لملاقاته و بعد التحية و قبل أن يسأل أي سؤال عن الكيمياء، أراه سلطان علي شاه يديه و قال له: "هذه هي الكيمياء الخاصة بنا ! نحن نكدح و نقف من عمل أيدينا." وكان يوبخ المزارعين الذين أهملوا أراضيهم، قائلا: "لو أن أرضا لها القدرة على إنتاج ٣٠٠ كيلو من القمح أنتجت ٢٧٠ كيلو فقط بسبب الإهمال، فإن المزارع سيكون مسؤولا أمام الله على فارق المقدار."

و عقب سلطان علي شاه صارت حرمة البطالة أحد الخصائص المميزة للطريقة النعمة الالهية الجنابادية، و كان جميع أقطاب الطريقة اللاحقين من المشتغلين بالأعمال و كانوا يوصون أتباعهم بالأمر ذاته أيضا.

## عدم الحاجة إلى التقيد بلباس خاص

من العادات القديمة عند الصوفية ارتداء زي خاص، كالصوف و الثوب المرقع و غير ذلك. في حين أن شاه نعمة الله ولي لم يلزم نفسه و لا أتباعه ارتداء زي خاص يعرفون من خلاله بأنهم من الصوفية، فكان أحيانا يرتدي ثوبا من الصوف الأبيض و أحيانا أخرى عباءة طويلة. و خلافا لعاداته، بدأ عدد من أتباعه بارتداء لباس مميز و هو ما ذكره عبد الرزاق الكرماني الذي كتب سيرة حياته: "ارتدى الدراويش من أتباعه زيا لم يكن هو و لا أولاده يرتدونه قطعا". لقد ألغى تحريم ارتداء لباس الدراويش لفترة مؤقتة بعد عدة قرون من قبل رضا علي شاه دكني لاثنين من أتباعه الشيوخ المفوضين الذين أرسلهما إلى ايران، و هما مير عبد الحميد علي شاه و مير علي شاه الاصفهائي. و قد دخل هذا الرجلان العظيمان ايران مرتدين ثيابا خاصة بالدراويش و هما يحملان الطاسة و الفأس المميزين للدراويش. و كانت هذه السياسة تهدف إلى لفت الانتباه

إلى عودة التصوف إلى إيران بعد حظره لسنوات عديدة.

و مرة أخرى حرم سلطان علي شاه على أتباعه ارتداء أي زي مميز للصوفية. و كان يقول: "إن العبودية لله لا تتوقف على أي زي خاص. و قد جاء في القرآن { و لباس التقوى ذلك خير }". في ضوء هذه القاعدة لا يوجد فرق بين المسلمين الصوفية و غيرهم من أبناء البلد، و تبقى اعتقاداتهم الخاصة كامنة في صدورهم. و لا تزال هذه السنة جارية في الطريقة النعمة اللهية الجنازادية و التأكيد عليها من قبل أقطاب الطريقة اللاحقين.

## القضايا الاجتماعية و السياسية

إن التصوف ليس في الأساس مدرسة فكرية سياسية، و عليه فلا شأن له بالسياسة. و مع ذلك فقد دخل الصوفية الميدان السياسي كأفراد أكثر منهم كصوفية.

يرى مشايخ الصوفية في الطريقة النعمة اللهية أن التكاليف التي عينها الاسلام بشكل عام على ثلاثة أقسام:

- (١) أحكام الشريعة التي يقع احرازها على عاتق المجتهد الجامع للشرائط.
- (٢) أحكام الطريقة التي يقع احرازها على عاتق المرشد الصوفي الحالي.
- (٣) الأحكام الشخصية التي يميزها الانسان بنفسه. فعلى الانسان أن يدرك بنفسه مسؤولياته و تكاليفه الشخصية من خلال فكره و عقله المستنيرين بهدي الدين.

و هكذا فإن التدخل للتعبير عن رأي بخصوص المسائل الاجتماعية يقع خارج نطاق الطريقة و لا يتوقع الصوفية تعليمات في هذا الصدد من مشايخ الطريقة. إن عمل الانسان و نيته ينبغي أن يكونا خالصين لوجه الله و لخدمة خلقه، و على الانسان أن يكتشف مسؤولياته و تكاليفه. و لا يعبر مشايخ الطريقة عن آرائهم بخصوص هذه القضايا، و عليه لا ينبغي تخيل أن تشخيصها من وظائف الطريقة.

خلال الأزمة الدستورية التي وقعت في إيران في السنوات الأولى للقرن العشرين، طلب الأتباع الدرنايش

من سلطان علي شاه أن يحدد لهم تكاليفهم، فكان يقول لهم: "أنا مزارع قروي درويش بسيط، و لا أعرف معنى الدستور و لا الملكية المطلقة." و قد ترك لهم الأمر ليشرحوا بأنفسهم. و في نفس الوقت أوصى الحكام ألا يظلموا الناس. على سبيل المثال، يوجد في كتابه "رسالة الولاية" فصل تحت عنوان "في بيان سيادة الدولة و معاملة الرعية" انتقد فيه بشدة ظلم الحكام في زمانه، يقول فيه: "في هذا الشأن ينبغي أن يتخذوا خلفاء الإسلام الأوائل قدوة لهم، و إذا كان زمانهم بعيد جدا عنا، فليقتدوا بحكام الغرب الذين لا يعيشون في رغد يعملون لتعمير بلدانهم توفير الرفاه لرعيتهن و ملء خزينة الدولة".

عاش سلطان علي شاه إبان فترة حكم الطبقة القاجارية المستبدة و معارضتهم إصلاح الدستور الايراني. كانت فكرة الدستور إحدى المفاهيم السياسية الأولى التي وردت ايران عن طريق الغرب. و قد أيدها بعض العلماء، أمثال آية الله سيد عبدا الله البهبهاني، في حين عارضها آخرون، أمثال الشيخ فضل الله نوري. و كان من الطبيعي أن تتشكل الأحزاب و التجمعات السياسية وتظهر المؤامرات و المكائد. و لم يكن الصوفية على يقين من تكاليفهم إزاء هذه القضية.

## إحياء أمر الولاية

تمثل الولاية روح الرسالة و بعدها الباطني و نبع طريقة الاسلام أو التصوف. في حين أن البعد الظاهري للرسالة يتمثل في إحراز الشريعة التي تُعنى ببيان أحكام الدين. وفقا لما بينه القرآن، فقد ختمت الرسالة بوفاة النبي (ص)، في حين أن باب الولاية مفتوح دائما. و الولاية هي الركن الأساسي الذي يقوم عليه التشيع و التصوف اللذان يشيران إلى حقيقة واحدة. و بحسب الرؤية الشيعية و الصوفية، لا يمكن أن يكون اختيار مقام الولاية أمرا بيد الناس أو بيد أهل الحل و العقد. و قد نص النبي (ص) على أن علي هو الوصي و الخليفة من بعده بأمر من الله، و بهذا الترتيب فإن الولي اللاحق يعينه الولي السابق بأمر من الله. من هذه الجهة فإن جميع سلاسل الطرق الصوفية تقريبا ترجع في أخذها إجازة الارشاد إلى الإمام علي.

و بعد عدة قرون صار التشيع بالتدريج مذهبا يحمل ملامحه الكلامية و الفقهية المرتبطة بحركة أو نهضة سياسية، و كانت الولاية تُفسر في بعدها السياسي. من ناحية أخرى لم تكن الولاية مورد اهتمام و توجه بعض الصوفية. و أحد الجوانب الأساسية في إحياء التصوف هو إحياء قضية الولاية في كتب

التصوف، خصوصا بعد سقوط الخلافة العباسية و ضعف المرجعية السياسية لأهل السنة.

إن أهم قضية عاجلها شاه نعمة الله ولي في آثاره و تعاليمه هي مسألة الولاية التي بحث جوانبها و شؤونها المختلفة بشكل مسهب في أعماله. فمن ناحية، أحيى موضوع الولاية إلى الحد الذي يلتفت معه الصوفية إلى أن الولاية هي أصل التصوف نفسه. و من ناحية أخرى فقد خاطب السنة و الشيعة سائلا إياهم عن معنى أن يكون المرء سنيا حقيقيا أو شيعيا حقيقيا. فتوجه إلى السنة قائلًا أن السني الحقيقي هو من يتبع سنة النبي (ص) و التي منها حب أهل بيته. و إلى الشيعة، الذين كانوا يوصفون بأنهم رافضة (أي يرفضون شرعية خلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل)، توجه بالقول أن التشيع ليس لعن الخلفاء الثلاثة الأوائل، بل هو اتباع علي. يقول في قصيدة له:

لست رافضيا و إنما أنا مؤمن خالص و خصم للمعتزلي  
أنا على دين جدي (النبي) و بعده تابع لعلي

و ذكّر الشيعة بأن الايمان بولاية علي ليس أمرا يلوكة اللسان فقط، بل هو أمر لا يمكن تحقيقه بدون ارتباط و توجه قلبيين لحقيقة الولاية و الاتباع. يقول في قصيدة له:

لست من أهل ولايته (علي) و مع ذلك تتباهى بما عليك معرفة ما تتباهى بشأنه  
لقد رفعا راية ولايته فعلام قرع الطبول تحت البساط ؟

و في آثار و تعاليم الشهيد سلطان علي شاه نلمس أيضا تجديدا لبحث الولاية، مع اختلاف في طريقة التعاطي ؛ ففي زمن شاه نعمة الله ولي كان غالبية سكان ايران من السنة ولذلك كان خطابه الأصلي للسنة، أما في زمن سلطان علي شاه فقد صار التشيع المذهب السائد في ايران بعد انتهاء فترة حكم الصفويين، و لذلك جاء خطابه الأصلي للشيعة. و كان المحور الأساسي في معظم كتبه، و منها تفسيره الصوفي للقرآن "بيان السعادة"، موضوع الولاية و أبعادها المختلفة. أما كتابه المستقل "رسالة الولاية" و الذي كتبه بالفارسية، فقد خصصه لتناول موضوع الولاية من وجهة نظر شيعية صوفية. يقول في بداية الكتاب: "اشتبه الكثيرون حين فهموا الولاية على أنها الحب أو الإقرار اللساني بإمامة أهل البيت عليهم السلام و ولايتهم ...". و يقول في كتاب آخر: "إن أولئك الذين انتقل إليهم التشيع عن طريق آبائهم يظنون أنهم

أيضا من الشيعة لأن التشيع عندهم ليس أكثر من إقرار لساني بولاية علي... و الحال أنهم لا يعرفون عن التشيع سوى اسمه. " و هكذا كان هدفه الأساسي بيان البعد الصوفي للتشيع المتمثل في الولاية لمن ينتسب إلى التشيع اسما، أولئك الذين حصروا التشيع في الإقرار اللساني أو في الإطار الكلامي و الفقهي.

من النكات المهمة التي أثارها فيما يخص موضوع الولاية، مسألة إجازة الطريقة في التصوف. و قد نالت هذه المسألة أهمية كبيرة خصوصا بعد الادعاءات المختلفة التي أفرزها التنافس على خلافة رحمت علي شاه، و رفض البعض إطاعة خليفته المنصوص عليه، سعادت علي شاه.

و كما قيل، إن إحدى أهم مبادئ الولاية أن يحصل شيخ الطريقة على الإجازة ممن سبقه في السلسلة، و يجب أن تكون هذه الإجازة على شكل سلسلة معنونة تنتهي إلى الإمام علي. و هذا هو السبب في استخدام كلمة سلسلة من قبل الطرق الصوفية. في زمن سلطان علي شاه و بسبب حدوث انقسام هائل داخل الطرق و كثرة من ادعوا خلافة المشايخ من دون أن تكون لديهم أي إجازة، كانت هناك حاجة ملحة لبحث هذه المسألة. وقد أشار إلى هذه المشكلة في العديد من آثاره. فعلى سبيل المثال، يقول: "اعلم أنه قد تم ضبط شجرة المشايخ السابقين في كل سلسلة." و استمر في بيان أن الوصية الصريحة للشيخ السابق ضرورية لدعم ادعائه بأنه الشيخ اللاحق، كما أنها ضرورية أيضا للمريد ليعرف تحت إرشاد من سوف يسلك في الطريقة. من هنا كان سعي الصوفية لحماية الوصية. و يقول في محل آخر: "في كل شأن من الشؤون الدينية يجب الحصول على الإجازة من المرجع الديني المعاصر."

و قد أصبح اليوم امتلاك وصية صريحة في الطريقة النعمة اللهيمة الجنازادية أهم معيار للتصدي للإرشاد المعنوي و الروحي.